الفصل السادس عشر
سماح سفيان موسى

الإهداء

طفولتي الحالمة، إلى تلك الطفولة التي صنعت مني كاتبة.. وحالمة وشغوفة.. إلى الطفولة التي تمنت أن تسكب بحبرها على الصحف.. أهدي هذا الكتاب إلى نفسي.. وإلى والداي شمعة دربي.. إلى أمي التي حلمت معي.. أمي التي دعمتني دائماً وشجعتني... من قالت لي ستصبحين... من آمنت بموهبتي... من جعلت من نفسها شمعة تحترق كي تضيئ حياتي... أهديه إلى إخوتي...إلى صديقاتي... إلى كل من دعمني وقال لي أن لك مستقبل... إلى معلماتي... إلى أساتذتي... إلى كل من يحبني... ويتمنى الخير والتوفيق لي.. أهدي أول كتاب مشترك لي بكل تواضع وفخر ...

إنه ليس ببعيد للدرجة التي تجعلني أهيب الركوب إليه...
صوته يتحول لأنين طفل مزعج وانتظاري لبعده القريب يتحول لقاتل مأجور من حياة كاذبة...
لمسات ورائحة وطني ترسم إلي ذاكرة المستقبل وليس حقيقة الحاضر..
إنها الذاكرة التي سوف تقطع داخلي بسكين الشوق..
ستكون حقا بعيدة... أبعد من انتظاري الذي أتوق إليه الآن...
زخات المطر كانت تتناسب مع دموعي لهذا كانت جيدة في إخفائها...
أما دموع قلبي فقد خفيت بداخلي ولكنها تقتلني ألف مرة وتعيد إلي حياتي على شكل كائن يتنفس هواء الحياة دون الهواء الذي يعيد إلى داخلي الحياة..
إنها الغربة..
لقد رسمت هذا في ذاكرتي بينما يقترب القطار ليُقِلّني إلى محطة جديدة لقد رسمت ذاكرة جديدة أضيفها لذكرياتي المفعمة بحياة الوطن..
كانت الذاكرة تلقي لعناتها للغربة بلهجة الوداع ...

وكانت تحتفظ ببقايا رائحة الوطن العالقة في مكان الانتظار الذي بات ليس ببعيد..

لقد اقترب القطار وقمت متثاقلة ولم أعد أهاب الركوب...

لقد ركبت وودعت الوطن بضحكة ليست ببريئة للحد الذي يصل أنين البراءة بداخلي... لقد كانت ضحكة ميتة على شكل حياة....

كم هو قاسٍ وداع بات محروقا في قلب أحدهم ومازال يتلفظ بلغات الشوق صعبة الاتقان ...دون أن يرد صدى صوته أي نداء..

كم هو قاسٍ..

أن يعيش المرء مذلول القلب بحرقة الحياة..

كم هو قاس أن ينسى نفسه لمجرد أنه يتألم من الداخل، كم هو صعب أن يغرس في صدر أحدهم فأساً يحمل معنى الغدر القذر.. لكنه حقيقة..

حقيقة أن يتألم أحدهم...

وحقيقة أن أحدهم يصرخ طالباً دواء لشوقه..

هي حقيقة أننا نعتصر أنفسنا كي نعِش.

عندما تسقط لن تعيش.. لكنك ستعيش بحياة أخرى

قد يقتل السقوط أشياءً فينا لكنه يجبرنا على الارتفاع بقوة أكبر في حياة جديدة.

......

****

تائه ...

يتيه المرء حينما يختفي الملجأ الذي يأوي غربته..
يتيه حينما يجعل الوطن منه مهاجر..
يتيه حينما يكون وحيدا في مكان يعرفه..
تضجُّه النظرات والإشاعات المريضة..
تضجُّ عالمه الخالي من أفكاره المدركة حقيقة ما يحصل...
يتيه الإنسان بعد أن تصرخ الثقة بوجهه وتدفعه ليصبح صلبًا وشرسًا يتيه حينما يتناسى العالم اسمه..
يتيه بكلام الناس... بتداولهم الإشاعات... بكذبهم بنفاقهم..
يتيه ويتشرد بنفسه... يصبح غريباً ضائعاً..
ثم يعود ويحمل جنسية الوطن الذي يسكن داخله...
يعود بعقل عجوز حكيم أرهقته سنين الخداع.
....
لم تكن روحه عطشة للحياة إلى تلك الدرجة التي تدفعه للخوف من الموت! كان هناك فقط هم وحيد عالق بين أرداف مصارعه...
هم يؤرق نجوم ليله ويحولها إلى نجوم سوداء..

تختفي في المساء وتزيد ليله ظلاماً.....
كان يفكر في أحبائه.. في الأشخاص الذين سيتركهم أشباه أحياء..
الذين يضحكون الآن من ملء قلوبهم ...
لكن فراقهم له سيحول هذه الضحكات إلى آهات... وإلى أفراح مسلوبة... وحتى آخر لحظة لم يفكر في نفسه..
ومات .

.....

أُقَدِّرُ ذلك.. أُقدِّر طفولتي رغم انكساراتها المتوالية..
أُقدِّر كم كان الأطفال يلتصقون بدمعتي كي يمسحوها...
أُقدّر تعاونهم...حبهم..
انسياب آهاتهم ببئر حبهم...
كم كان للعب نكهة خاصة...
كم هي جميلة براءة الطفولة حين يكون اللعب هو سر السعادة..
وكم هي جميلة تلك الذكريات رغم اهترائها..
لكنها كتاريخ بُعثر بالحروب..

ورغم ذلك كانت هذه الحروب نهايتها انتصاراً وعنوانها بطولة ..
ماذا أفعل في هذا المكان؟!
لم عدت إلى هنا!
ماذا أتوقع..
هل سيكون كل شيء كما كان سابقاً...
هل جميع الأطفال الذين كبروا... سيعودون إلى أكثر مكان تمنوا فيه أن يغادروا....
أن يعيشوا بحرية كما أرادوا..
وهل عاشوا؟!
أم هم أموات مثلي في مقبرة الحياة!
ويدُّق الوقت.. مراراً وتكراراً.. وأنا أتساءل ما الذي أفعله وسط هذا المكان.. ماذا أفعل بطفولتي...
هل أعاتبها لأنها سبب رمادي المتناثر على دهاليز معالمي..!!
أم أبحث فيها عن آلة زمن تعيدني إليها...
كي أكون جاهلاً وبريئاً.. وكي تكون التعاسة مجرد رياح غبرة تعبر أمامي.. حقاً.. حقاً
إنّ الجُهالَ أسعدُ البشر.. كلما عرفت أكثر.. ستموت أكثر..

وماذا عن معادلة الحياة..
يجب أن تعرف كي تعيش..
لا أُؤمن بها.. أنا أُؤمن هنا فقط في طفولتي..
أصدق أنه علي أن أكون جاهلا ليس كي أعيش فقط..
بل كي أكون سعيداً...
لقد تراكمت صدمات الحياة لتشكل جبلاً يسدُّ سعادتي
..يسدُّ عيشي ..ويسدُّ تصاعد روحي كي أتلاشى...
قدري كتب أن أكون يتيماً...
يتيم الوالدين... والفؤاد والفرح...
أجل إنه المكان..
هو المكان الذي يعديني إلى بداية حياتي..
قبل أن أنهار بجبلي.. وقبل أن أعرف أكثر.... ولكن في كل
مرة أعود بها إليه...أراه محطمًا.. زائف العيش..
تستيقظ ذكرياتي..
وتزيل لحاف شكوكها.. لترمي به سواراً في معصمي تكتب
أشرطتها عليه أنني لم أعد طفلاً ولا يتيماً...
تعيد كتابة الجمل.. وتصيغ لي العناوين..
كأنها تطبع كتاب حياتي أمامي..

تخبرني أن أكمل للأمام فالخلف لم يعد مقصدي... فترتمي ذاتي بين يدي... وتهرب الاسئلة..
لتتراقص الأجوبة أمامي..
على شكل ثعبان موت أزلي.. يشيح بنظري إلى ظلام الأرض ..
فأغوص مرة أخرى متكورا في دموعي..
دون أن يكون هناك أطفالا يلتصقون بها.
.....
انتظر...
إلى أين تذهب..!؟
صديقي أنا أراك..
أرى الضجيج الذي تكتمه بداخلك..
أراك تصمت بألف شعور... وتُوهم نفسك أنك تشعر..
ما بك يا صديقي..!؟ تحاول الهرب بحروفك مني..
وتُشفق على بريقِ الموت كأنك لم ترتشف منه يوماً!!
مالي أراك تتجرع الحب وتختفي في منتصفه..
أراك تعود وأنت تبتسم كأن الحب شيء عادي لم يحط بك أرضاً...!!
لم يسلب منك ابتسامتك القلبية..

لكنك مازلت.. مازلت تخبرني أنك بخير..
وأنك تضحك دائماً..
وأن جراحك النفسية مجرد كدمات تزول..
لكنني أعرف كم تتألم...
وكم تختنق وتعيش على تنفس مجهول الهوية..
أعرف أنك تود أن تفجر الحروف أمامي كالقنبلة...
وأرى حقاً كم أن تلك القنبلة مقفلة...
وكم أن كلمة سرها صعبة... صعبة الانفجار ..
قف منتصباً يا صديقي.. لن أسألك كثيراً ما بك!!
فبعض الآلام لا تنطق... وحتى لا نستطيع البوح بها لأنفسنا.. لكنني سأكون لبنة قوية تسند بيت حياتك...
سأخبرك مراراً أنَّ لا حزن يدوم ولا فرح يدوم.. سأخبرك أن قانون الحياة يحتم علينا العيش مرة واحدة..
لهذا لا تضيع وقتك لأجل أشباه بشر لا يشعرون... كن منقذ نفسك يا صديقي... تمسك بعظمة الله كي تنجو وهاك يدي كي ننتشل بعضنا من مُر الحياة ونلوذُ إلى حلاوتها.

....

كلام الناس كالرامي والسهام... تحاول اختراق قلوبنا..
وقتلنا بموت الحزن والقهر... لكن قلوبنا كالحجر...
هي تصدهم... تبعدهم... تعيد السهام إليهم.

****